ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 31 مارس 2023

حجج الفيلسوف

ميشال ماير
ترجمة: عبد الله كسابي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2023
All rights reserved © 2023

حجج الفيلسوف[1]

تأليف: ميشال ماير Michel Mayer
ترجمة: عبد الله كسابي

1- مصدر النص المترجم: Michel Mayer, Qu’est-ce que la philosophie, biblio essais, Librairie générale de France, 1997, p.: 33-41

ملخص:

تنظر الفلسفة إلى ذاتها في المرآة، بعد ما ينيف عن ألفين وخمسمائة عام من ميلادها، فتشعر بالقلق مما آل إليه حالها، بعد أن هجرها بنين وبنات عدتهم، في زمن مضى، من صميم وجودها، منهجا واستدلالا وغاية؛ لكنهم سرعان ما أداروا ظهورهم لها، وصاروا عنوانا لخريف عمرها، فقررت استبدال المرآة القديمة بأخرى أكثر جلاء، من شأنها أن تعكس، ليس فقط هويتها وخصوصيتها، بل أيضا شبابها المتجدد والأزلي.

أسئلة كثيرة ما فتئت الفلسفة، منذ عقود خلت، تطرحها، حول ما تكونه، وما تنشده، وما تتأسس عليه أفكارها وأطروحاتها ونظرياتها؛ وحول ما تتمايز به عن العلم بصورة خاصة. هل تكتسي استدلالات الفيلسوف ونظرياته طابع الإلزام والضرورة والموضوعية، أم لا تعدو أن تكون خطابة تتخذ صورا وأشكالا مختلفة بحسب الظروف والمقامات؟

يقارب ميشال ماير هذا الإشكال في فصل من فصول كتابه «ما هي الفلسفة؟»، ويقدم باختصار، ولكن أيضا باقتدار، صورة لما يقوم عليه الخطاب الفلسفي ويتأسس عليه. فالفلسفة، التي ليس لديها لا موارد العلوم التجريبية، ولا القوة الداخلية للمنطق الرياضي الخالص، لها منهجيتها الخاصة المتمثلة في الحجاج، الذي وإن لم يضف عليها طابعا عقليا محضا، فهو يجعلها خطابا معقولا. ويتجلى الطابع الحجاجي للفلسفة، التي تنهل من الجدل أكثر من الخطابة، في إثارة أسئلة وإشكالات تتجه نحو الكوني، وفي تقديم أسباب وحجج تقوم على النهج المباشر، ولا تنشغل بالمسافة بين الذوات، وتعتمد على مواضع ليست بمنأى عن كل مساءلة، وتوجه الفكر في منحى يمكن لأي كان أن يمضي فيه موضوعيا، سواء بالاستناد أكثر على الوقائع، أو على تكوينها، أو على فحص صلاحية ومشروعية الأسئلة والإشكالات المطروحة. وفي كل الحالات يسعى الفيلسوف إلى إقناع القارئ بما يكتبه، ويخلو حجاجه من أي شيء مطلق، ولذلك تكتسي أفكاره وأطروحاته على الدوام طابعا إشكاليا.

النص المترجم:

الخطاب الفلسفي له منطقه الخاص، وإرادة جعله قرينا للعلم بالاعتماد على الاستدلال القياسي الملزم، بمثابة تضحية به لصالح المثال الرياضي. ونحن بلا شك مدينون لأفلاطون بهذه الإرادة الرامية لجعل الفلسفة تجسيدا للاستنباط الرياضي؛ لأنه كان يجابه «الفكر الرخو» لعصره، والمتمثل في السوفسطائية. لكن، ماذا يكون السوفسطائي؟ إنه خطيب، ومتلاعب بالكلمات والأذهان، ويمكنه الدفاع عن أي شيء بشرط نيل مقابل مادي. ويعد، في نظر أفلاطون، مثالا للديموقراطية، حيث الرأي يتفوق على الحقيقة، والذاتي على الموضوعي، والحس على العقل، والمتغير على الأزلي. إن الخطابة نقيضة الفلسفة: خلاصاتها غير يقينية، وما يمكن أن يصير مغايرا، ووجود متعدد وغير قابل لأن يحاط به. والحال أن الوجود واحد وفريد: إنه يتحدث بصوت واحد، صوت العلم والحقيقي المطلق والحصري.

لنتوقف ها هنا. إن رؤية كهذه للفلسفة ونمط خطابها مخالف للواقع. فأفلاطون أبدع محاورات ليست من الرياضيات في شيء، وخلاصاتها مطروحة أو مقترحة أكثر مما هي مبرهن عليها. وفضلا عن ذلك، هذا ما يجعل أفلاطون جذابا ومثيرا، حتى في الوقت الراهن. ولا يمكن قول ذات الشيء عن أوقليدس Euclide، بالرغم من عبقريته الكبرى.

وباختصار، إذا كانت الفلسفة لا تحب الخطابة البتة، فإنها لا تمتنع عن استخدامها. فالفلاسفة يحاججون، ويعارض وينتقد ويناقض بعضهم بعضا: وبكلمة واحدة، إنهم يضعون الأشياء موضع مساءلة، وهذا ما يُنتظر منهم. أما السوفسطائي -لنتفق مع أفلاطون في ذلك- إنما هو فيلسوف سيء، إذا كان جديرا بهذا الاسم. إنه يحجب الإشكالات في وخلف إجابات ليست بإجابات، ويوقع جمهوره في الوهم، حتى وإن كان في ذلك متعة له.

أحيانا، إن لم يكن في أغلبها، يطرح الفيلسوف أسئلة لا يَستشف إجابة عنها من تساؤله الخاص. إنه يطلب إجاباتها خارجا: لدى الآخرين، ولدى الجمهور الذي يريد استقطابه، وفي آراء اللحظة، دون أن يفضي هذا، بالرغم من ذلك، إلى ضرر. إن الفيلسوف، آنئذ، بمثابة صدى للمعتقدات المضمرة، والصوت الصادح للحقائق المتداولة. لكن حتى في هذه الحالة، يحاجج، ويعالج أسئلة، ويوجه إجابات جمهوره، ويستند على حلول مقبولة. إنه يتوخى الإقناع، وخطابه إن لم يكن عقليا rationnel، فهو على الأقل معقول raisonnable، وذلك بفضل الأسباب أو المبررات التي يمنحها إياه أو يمنحها لنفسه. والفلسفة لا يمكن أن توجد بدون هذا الحد الأدنى من الطابع الحجاجي argumentativité، وإلا فإنها تصير مبهمة، بل وحتى ذات نزعة تعتيمية، عندما يكون بالإمكان معارضة الخطاب الفلسفي بالخطاب النقيض بالضبط.

من المهم إذن التساؤل عما نسميه الطابع الحجاجي للخطاب، أو عقلانيته rationalité إذا شئنا. عقلانية طبيعية، تنتج عن قصد أكثر مما تنتج عن استخدام اللغة الذي يترجم هذا القصد. ومن هنا فجعل هذا الطابع الحجاجي، كما زعم بعض اللسانيين، خاصية للغة نفسها، إنما يكشف عن هوة؛ لأن الكثير من القضايا لها قيمة حجاجية وخطابية، دون أن تتضمن ما يدل على ذلك لسانيا، بل فقط لأن السياق يضفي عليها هذه القيمة.

ماذا يكون الحجاج إذن؟ وما الخطابة؟ لقد أعطيت تعريفات لهذه وتلك، متغاضية أحيانا عن التمييز بينهما. فبالنسبة إلى أرسطو Aristote، الحجاج يحيل على الجدل: نناظر ونناقش، وبطبيعة الحال نتساءل بعد ذلك عن القواعد العامة للمناظرة والمناقشة. أما الخطابة فتنكب، من جانبها، ودائما حسب أرسطو، على أسئلة جزئية، كما هو الحال بالنسبة للجميل والعادل في هذه الحالة أو تلك. فالأمثلة، وعمليات الاستقراء من الخاص إلى العام، والأسلوب المعتمد في وصف الوقائع، تنتمي منذئذ أكثر إلى الخطابة، التي هي أقل صراعية بكثير من الحجاج. كما لو أنه، من الاثنين انتقلنا إلى الوحدة، ومن الحوار إلى المونولوج. ولاحقا؛ أي بعد أرسطو، ستركز الخطابة على الأسلوب والصيغ الأدبية، بينما ارتبط الحجاج بالممارسة القضائية، مع مناقشاتها المتناقضة.

لقد صارت الفلسفة بدورها لغزا بالنسبة إلى ذاتها: إذ ليس لديها موارد العلوم التجريبية، ولا القوة الداخلية للمنطق المفاهيمي الخالص، فما قيمتها على وجه الدقة؟ وما الذي تقوله؟ أو بالأحرى كيف تقوله؟ الجواب: إنها تعطي مبررات أو أسبابا، حتى وإن لم تكن لها القوة الملزمة للمنطق، فهي بالرغم من ذلك مبررات وأسبابا، وحججا، من شأنها توجيه الفكر في اتجاه يمكن لكل واحد أن يمضي **موضوعيا**[1] فيه.

وهذا يفضي إلى التساؤل عن الخطابة والحجاج؛ فالخطابة علاقة حيث الجمهور يُؤخذ بالاعتبار: يتعين إقناع هذا الجمهور، على سبيل المثال. لكن ليس لزاما. وعلى هذا المستوى تتمايز الخطابة عن الحجاج. فالخطابة، بكيفية عامة، بمثابة عملية تفاوض حول المسافة بين الذوات، عملية تفاوض لا تتوخى لزاما اختزال المسافة، بل تبذل جهدها أحيانا للإبقاء عليها. إننا نحيا في مجتمع، والاختلافات بين الأفراد وبين الجماعات أمر واقع. والخطابة تضفي القوة على هذه المسافة، وتنميها أحيانا، وتنشد اختزالها، وذلك من خلال الشكل وحده، او حتى بواسطة الاستمالة persuasion، وآنئذ ترتد الخطابة إلى الحجاج. ويمكن فضلا عن ذلك التقليص من هذه المسافة وذلك بإرادة الإمتاع بدل بذل الجهد لإعطاء مبررات أو أسبابا وحججا. وأيضا قد يتعين التمييز كذلك بين الخطابة الحجاجية وبين تلك التي ليست كذلك، حتى عندما نريد حفز الانخراط أو القبول لدى الآخر.

1-الخط المضغوط في النص كاملا من الكاتب نفسه.

لكن في الغالب، على مستوى الممارسة، يتمازج الاثنان: فالإمتاع والإقناع، والإثارة والحجاج يسيران جنبا إلى جنب في السياسة، كما في الإشهار، على سبيل المثال.

إن الفلسفة، المؤسسة على العقل، هي بالرغم من ذلك، حجاجية بالأساس، حتى وإن أرادت أن تكون «منطقية» في البداية. فها هنا تكمن خطابتها الخاصة. لِنُضِف أن الخطابة ليست مجرد عملية تفاوض عن مسافة بينذاتية intersubjective، بل إن لها موضوعا، والذي هو بمثابة مقياس لاختلافاتنا: يتعين أن يكون هنالك سؤال في البداية، والذي بشأنه لسنا على وفاق، أو على العكس، تُحدِّد وتؤكد الأطراف انطلاقا منه هوياتها. وفي كل الأحوال، الخطابة قائمة على العلاقة **إيتوس- باتوس- لوغوس** *ethos- pathos- logos*: خطيب أو كاتب، وجمهور، وخطاب يجمع بينهما. الإيتوس فسح المجال للإتيقا éthique، والباتوس للأهواء أو الانفعالات passions، التي هي ما يلحق الجمهور من جانب الخطيب، واللوغوس، الذي هو الخطاب وبالتالي المنطق.

نجد هنا الصورة التي تتخذها الذات والغير والعالم في الخطابة. الإيتوس يعبر، في الأصل، عن الفضيلة؛ أي القدرة على إيجاد حلول للأسئلة التي تنصب عليها المناقشة. فمن سؤال إلى جواب ومن جواب إلى سؤال، السلسلة لامتناهية، إذا لم تكن هنالك، في لحظة ما، نقطة توقف، من شأنها أن تصير بمثابة حجة سلطة. وسلطة الكاتب أو الخطيب هي إيتوسُه، أي قيمته كخبير حول السؤال المعطى، والتي تجعل أن ما يقوله أو ما نعتقد أنه يقوله، نكف عن وضعه موضع مساءلة. فالقيمة، التي لم تكن تهم غير الخواص الخطابية للذات، من خلال اتخاذها طابعا كونيا وعاما، صارت مميزة لهذه الذات كذات وكإنسان وكشخص. والإتيقا بمثابة نقطة اكتمالها. وهذا ينطبق أيضا على الباتوس: فمن الجمهور الذي ينحصر في انفعالاته، يصير الباتوس دالا على الهوى أو الانفعال والتلقي السلبي، وعلى السيكولوجيا الجزئية للآخرين في اختلافاتهم الفردية. وبخصوص اللوغوس (أو الرسالة)، فقد صار بمثابة مضمون، إنه خطاب العالم أو العالم كخطاب، مخلوقا أو غير ذلك («الله عبارة عن لوغوس»). إن عملية إضفاء الكونية الفلسفية جمعت الإيتوس والباتوس لتجعل منهما الإنساني، أي الكوني والجزئي (جزئي هذا الكوني)، مثلما أن اللوغوس اتخذ طابعا كونيا في المنطق، حيث يتبدد الاختلاف الذاتي بين الخطيب والجمهور. وهذه الأبعاد الثلاثة تحولت آنئذ إلى تخصصات منفصلة وتكاد تكون مستقلة، كالإتيقا والباتولوجيا pathologie (أو الإنسان الفريد، «البليد») والمنطق. هذه الباتولوجيا التي ستنتسب، على الأقل في البداية، إلى الطب أكثر منه إلى السيكولوجيا.

إن الكوني، في الفلسفة، في جانب معين بمثابة إدماج للآخر. ويبدو أننا لا نتوجه إلا إلى قارئ مجهول، أو تجسيد غير مجسد لـ «جمهور» خاص، لكن واقع الأمر أننا نفاوض القارئ على القبول بما نكتبه.

كيف يجري التصرف في الخطابة من أجل التفاوض عن هذه المسافة بخصوص إشكال ما؟ لننظر بداية في السؤال ومفترضاته المسبقة وسياقه التاريخي وحتى المباشر. يتعلق الأمر بما يسمى بالنهج «المباشر» ad rem، الذي نميزه عن النهج الشخصي ad hominem، حيث يجري التركيز على المسافة بين الأفراد، الذين يحاججون ويتعارضون أو يتوافقون فيما بينهم. وهناك سمات للسؤال تتعلق به على نحو خاص، والتي تميز ما ينصب عليه السؤال باعتباره نوعيا: إنها بداهات ومكتسبات، حتى وإن كانت من مستوى لغوي، لأننا نتكلم لسانا مشتركا بكل بساطة. وتسمى مواضع خاصة lieux propres بالنسبة للشيء موضوع السؤال، وذلك في مقابل المواضع المشتركة lieux communs، التي هي عامة، وتكاد تكون شبيهة بالأمثال.

وهكذا يمكن أن نتساءل عن جدوى عدم أكل لحم العجل في أعقاب وباء «جنون البقر»، لكن ما تفترضه المناقشة، والذي ليس موضع مساءلة، هو أنه يتعين الدفاع عن الصحة العمومية، وبأنه من الأفضل الاستمتاع بصحة جيدة بدل امتلاك فلاحة مزدهرة لكنها معدية.

إن المواضع المشتركة مثلها مثل المواضع الخاصة هي الإجابات المقبولة التي لا يجري إعادة النظر فيها، وتؤدي وظيفة المقدمات في كل استدلال لاحق. والانشغال بالكونية بمثابة موضع خاص بالفلسفة.

وتتحدد المواضع الخاصة بالإجابات **عمن** *qui*، و**ماذا** *quoi*، و**أين** *où*، و**كيف** *comment*، و**متى** *quand*، والتي تضفي السياق على هذا الذي هو موضع سؤال. ويدرك المحققون جيدا أنه يتعين عليهم الإجابة عن كل الأسئلة، إن هم أرادوا إقناع هيئة محلفين موكول إليها البت في جريمة ما على سبيل المثال. أما المواضع المشتركة فتعبر، من جانبها، عن مقولات الزمان والمكان (الموضع على وجه الدقة) والأداتية وغيرها، **باعتبارها أسئلة**. وموضع ما هو دائما اتخاذ لموقف بصدد سؤال من هذه الأسئلة، التي سبق أن عددها الخطيب اللاتيني الشهير كونتليان Quintilien، الذي كان على دراية في هذا بأرسطو و**مقولاته** التي لا تقل شهرة. فالموضع بمثابة جواب بديهي، وبقدر ما يكون خاصا بمجال ما بقدر ما يستخدم فيه بصورة حصرية. لكن لا يتعين الاعتقاد أن المواضع، لكي تكون كأشياء خارج كل مساءلة، من شأنها أن تستخدم في إيجاد حلول لأسئلة، لا يجب أن يكون من الممكن وضعها موضع سؤال. لنفكر في **البراديجمات** *paradigmes* لدى كون Khun، والتي تحدد مواضع نظرية يجري الاشتغال داخلها، لكنها يمكن أن توضع بدورها موضع مساءلة، وبالأخص في فترات الثورة العلمية. وفي واقع الأمر، ومن أجل الاختصار، تمثل المواضع مجموع الأسئلة التي يمكن أن تثار بخصوص إشكال معطى. وفي الفلسفة، العدالة، أو الحرية، أو الفضيلة، أو الحقيقة، كلها مرتبطة بالعديد من المواضع، والتي هي مواضع فلسفية بامتياز. وهذه المواضع هي ما نناقشه ونتحادث بشأنه، مع أنها، على ما يبدو، توجد خارج نطاق المساءلة. ومن هنا التمييز الذي يتعين القيام به بين ما يتعلق أو ينصب عليه السؤال، وبين ما يثير السؤال. فإذا قلت إن «نابليون هو

المنتصر في معركة أوسترليتز Austerlitz»، فالسؤال ينصب على نابليون، لكن ما يثير السؤال هو على الأرجح هوية المنتصر في المعركة.

إن تقارب الأسئلة، في الفلسفة كما خارجها، يعني في الغالب أن تقوِّم وتقارن وتختار إجابات مسبقة أو خارجية معطاة من لدن الحس المشترك أو العلوم الإنسانية على سبيل المثال. باستثناء الحالة التي ينتج فيها الفيلسوف نسقه الخاص، وهو ما لم يحدث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، التي هي بمثابة «حرب البيلوبونيز» الخاصة بنا.

ويتأتى التقويم والحكم بمساعدة المواضع. والنهج «المباشر» في حاجة إليها. لكن مناقشة سؤال يمكن أن تكون أكثر صراعية، وحتى أكثر جذرية، وإذن نميز بين ثلاث لحظات مرتبطة بالمكونات المعلومة للاستدلال والتي حلت بصورة قبلية بواسطة القياس. ويمكن أن ننفي ما ينتمي إلى موضوع: هذا ليس بـ «س»، كما يمكن أن ننفي المحمول: هذا بالفعل عبارة عن «س»، لكنه ليس بـ «ص»، ويمكن أخيرا نفي صلاحية أو مشروعية السؤال المطروح. وإذا نظرنا في المثال «الأفاعي سامة»، فسنرى أن أحدا ما يمر فوق ما يبدو أنه عش أفاعي يتوجب عليه نفي عنصر من العناصر الثلاثة، والإجابة بالسالبة على سؤال من الأسئلة الموافقة لها، حتى وإن كان معتوها أو غير حذر. فإما أن يعتبر أنها ليست بأفاع، بل على سبيل المثال حبال متشابكة ملقاة على الطريق. وإما لا يحفل بها ولا يشعر أنه معني بالموضوع.

وفي الفلسفة أيضا نجد هذه الطرائق الحجاجية الثلاثة في مناقشة الأسئلة. فالأهمية الممنوحة للوقائع تميز بالأخص كل صور الواقعية والتجريبية (لوك Locke، بيركلي Berkeley، هيوم Hume). والأهمية المعطاة لتكوين هذه الوقائع هي بالأخص وليدة المثالية والعقلانية: فما يعتبر إنما هو الجزء المحدد من المدرك: كيفه وصفته وتأويله، وباختصار، الجزء غير الحسي، بل المتعقل والمفاهيمي (أفلاطون Platon، كانط Kant) من الواقع. وأخيرا، لدينا طريقة للتفلسف أكثر منهجية ووصفية مما هي تكوينية، وأكثر تحليلية وأكثر تمركزا حول مشروعية الإشكالات، وحتى أكثر تفكيكية، نجدها سواء في الفكر النظري أو العملي الألماني، مع هابرماس Habermas، أو في الفلسفة السياسية الأنكلوساكسونية التحليلية بالأساس، أو في الفكر الفرنسي مع دريدا Derrida.

وعلى الرغم من ذلك، كل تيار من هذه التيارات الكبرى للفكر، لم يتوفق في الامتناع عن الاستدلال بما يميز التيارين الآخرين. وهذا دليل على أن منهجية الفلسفة باعتبارها خطابا إنما هي الحجاج، وبأن الفيلسوف لا يمكنه الاستغناء عن المعالجة الحجاجية لطابعه الاستفهامي، تحت طائلة الوقوع في السذاجة.

إن الحجاج في الفلسفة أساسي؛ لأن هذه الأخيرة ليست لها لا الموارد التجريبية للعلم، ولا الإلزام الصوري للرياضيات وللمنطق. ولا يتبقى لها غير مناقشة أسئلة، من خلال الاعتماد على حجج متعددة لها ارتباط بالأطروحات التي تدافع عنها في لحظة معطاة.

إن خلاصات أو نتائج الفلسفة لا يمكن أن يكون فيها شيء مطلق: إنها تظل على الدوام، في جانب معين، ذات طابع إشكالي؛ أي إنها تظل مصدرا للأسئلة، سواء تلك التي نطرحها، أو تلك التي تسائلنا، أو حتى تلك التي تتوجه إلى حساسيتنا. ومن الممكن أن الفلسفة ها هنا أكثر قربا من السوفسطائية، هذه الخطابة السيئة التي وصفها أفلاطون، والتي يتعين رفضها من خلال تفكيك الخطابة عامة من أجل تلافي الوقوع في ألاعيب اللغة. وبعد ما قيل، لا يجب أن ننسى أبدا أن الطابع الإشكالي للفلسفة يتوافق مع ما هي عليه: تفكير أو تأمل في الإشكالات، وهو ما يعد في حد ذاته إجابة.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023